

عدول المعاني عن مقتضى الحال

في القرآن الكريم

أ.م.د. أمير فاضل سعد*

الملخص

درس البحث "عدول المعاني عن مقتضى الحال خارج بنيتها اللغوية"، في القرآن الكريم، فناقش العلاقة الواصلة بين معاني البنية اللغوية وأحوال السياق الخارجي، ومواقفه المختلفة؛ ومن ثم فإن الحركة الناقلة بين المسار الخطي لبنية اللغة وأحوال الخارج ومواقفه- هي التي تشكل هذا العدول، وتحدد طبيعته، وأثره، وقوة بيانه.

ولقد حدد البحث لهذه الظاهرة الأسلوبية أكثر من صورة، منها عدول معاني البنية عن أحوال الحياة الواقعية خارجها، والعدول عن الزمن الحاصل في الواقع، والعدول عن النظام اللغوي المأخوذ به في واقع الحياة، ولقد خلص إلى التأكيد على تَمَيَّز القرآن الكريم بهذا الأداء، والتأكيد -كذلك- على الأثر الكبير لهذا الأسلوب، وقوة بيانه، وأثره في إنتاج المعاني، وتأكيد حصولها، وأيضاً أثره في توجيه المتلقي للنظر في معطى الأداء اللغوي، وتحفيزه في فهمه، وإدراك مقاصده..

الكلمات المفتاحية: العدول، والقرآن، والبيان، والبلاغة، والسياق...

* الأستاذ المشارك في الأدب ونقده، في قسم اللغة العربية، كلية التربية بالحديده - جامعة الحديده.

Abstract:

This study examined "the modification of meanings of language structure from the situation context and outside it", in the Holy Qur'an. The study discussed the relationship between the meanings of language structure and conditions of the external context, and its different positions. Hence, the shifting movement between the linear path of the language structure and external conditions and attitudes - that constitutes this modification, determines its nature, impact, and its manifest strength. The research has defined this stylistic phenomenon in more than one form, including the meaning modification of the structure from the outside real-life conditions, the modification from the time in reality, and the modification of the linguistic system adopted in the real-life. The study concluded that the Holy Qur'an is unique with this performance. It also confirmed that the great effect of this style, and its strength of its rhetoric, its effect on producing meanings, confirming their occurrence, as well as its effect on directing the recipient to consider the given linguistic performance, stimulating his understanding and realizing his intentions .

Keywords: modification, Holy Qur'an, Eloquence, rhetoric, context

أولاً: التقديم: يدرس البحث "عدول معاني البنية اللغوية عن مقتضى الحال خارجها"، ثم يبرز أثره في بيان مقاصد الآيات والسور التي ورد فيها، والبحث يأخذ بمنطوق بنية اللغة، في دراسة موضوعاته ومناقشتها.

إن العدول في الأصول اللغوية هو المَيْلُ..^(١)، وفي اصطلاح الباحثين هو الميل عن معيار، ومجاوزته إلى آخر^(٢)، أو هو تجاوز المستوى العادي للغة إلى المستوى الفني^(٣).

وسياق الكلام ظرفه الذي يقع فيه، وأسلوبه الذي يجري عليه؛ ولهذا لا تَرُدُّ استعمالات الكلمة مطلقاً، بل باعتبار السياق^(٤)؛ ومن ثمَّ كان معرفة السياق ضرورة لفهم الأقوال، والأفعال، والإحاطة بها؛ واستكشاف معانيها^(٥).

والحال في اصطلاح علوم البلاغة هو دواعي التَّكلم بكلام مخصوص يؤدي إلى المعنى المراد ويؤكد، ويسمى ذلك مقتضى الحال^(٦)، ومراعاة الحال معلم رئيس لقوة بيان الخطاب، وتأثيره في المخاطبين، وقد وردت في الأصول البلاغية- أن مدار شرف المعنى في "موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال.. فينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين

(١) ينظر ، الجوهري ، إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ): الصحاح . تاج اللغة وصحاح العربية ، تح: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م ، مادة (عدل).

(٢) ينظر، عبد اللطيف ، د.محمد حماسة عبد اللطيف: منهج في التحليل النصي للقصيدة ، مجلة فصول، مجلد ١٥، ع ٣٦، ١٩٩٧م، ص: ١٠٨.

(٣) ينظر ، الهنداوي ، د. عبد الحميد الهنداوي : الإعجاز الصرفي في القرآن ، دراسة للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة ، المكتبة العصرية، بيروت، ط١ ، ٢٠٠١، ص: ١٤١.

(٤) ينظر، استيتية ، د.سمير شريف: منازل الرؤية للنص . منهج تكاملي في قراءة النص ، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٣م، ص: ٣٣١.

(٥) ينظر ، الحفني ، د. عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ط٣، ٢٠٠٠م ، ص : ٤٢٥ ، مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، مادة (سوق).

(٦) ينظر ، الحفني ، د. عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م، ص: ٢٧٢.

أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً^(١)، والهدف من هذا كله هو تحقيق مناسبة الخطاب لأحوال المخاطبين، وبيان ما يلزم المتكلم الأخذ به حتى يبلغ خطابهُ قلوب السّامعين، ويؤثر فيهم.

والمراد من مقتضى الحال هو مواقف الحياة، وأحوالها خارج بنية اللغة، سواء أكانت تاريخية، أم كانت ثقافية، أم كانت مسلكية.. أو غيرها، و"العدول عنها" هو عدول معاني بنية اللغة عن مطابقتها لمعاني هذه المواقف الحياتية، وأحوالها.

إن مدار العدول هو بيان المعاني، فمثلاً العدول عن المخاطب «يُسَيِّرْكُمْ، كُنْتُمْ» إلى الغائب «بِهِمْ، وَفَرِحُوا»، في قوله (تعالى): «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرْكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ..»^(٢) يعبر عن معانٍ وحقائق عدة:

الأولى- مراعاة طبيعة النفس: فقد جُبِلَت النَّفْسُ على انتصارها لنفسها؛ والدفع عنها ما قد يوجه إليها من خطأ ذاتي، أو تهمة تقصير؛ ولهذا حينما قررت الآية ذكر مسلك خفي، وتحديد ضرره ناسب العدول عن المخاطب إلى الغائب، أي عن الخطاب المباشر إلى خلافة؛ مراعاة لهذه الصفة الغالبة على الذات، وما قد يترتب عليها، في حال مباشرة ذكرها لحال سلوكه، من مواقف غير إيجابية تجاه هذا الخطاب؛ وَمِنْ نَمَّ ظَهَرَ الخطاب بهذا العدول كأنه للآخر - أي آخر- وَعِنْدَهَا تنشيط النفس في قبولها لهذا الخطاب، وإيجاب تفاعلها معه، بل قد تتعجب لحال "الآخر"، وسلوكه، وقد تنكر عليه، ولولا هذا العدول لذهبت

(١) النص لبشر بن المعتمر مقتبس من : الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، (د. ط. ت)، ص : ٧٦ . ٧٨ .

(٢) يونس: ٢٢

هذه الفائدة^(١). وكذلك يتصل العدول بتغليب النفوس حب التغيير، ونفورها من البقاء على نمط ثابت في أحوالها وعلائقها؛ ومن ثمَّ فإن تحول بنية اللغة والمغايرة في معانيها تقبل به النفس، وتنشط في تلقاها له.

الثانية- الاتساق مع أحوال الواقع: إذ إن تحولات المبنى والمعنى موصول بتحولاتها يجسد تحولات الأحداث الواقعية، فقد تحول المشهد البحري عن هدوئه، وروعة نسيمه، وبهجة الذوات وفرحها على الفلك، إلى خلاف هذا بعد هول الأحداث، وفجيرة النفوس؛ ومن ثمَّ اتسقت تحولات بنية اللغة مع معطيات أحداث الواقع في مشهد الآيات السابقة.

الثالثة- دلالة العموم: إذ يفيد هذا العدول عموم المخاطبين، وشمولهم - كذلك- جميعاً، ولا يخص إنساناً دون آخر، وهذا لا يتحقق كثيراً في حال وردت صيغة خطاب الحاضر؛ لأنه يبقى الخطاب خاص بالحاضرين، وتحديده بهم، ولا يتجاوزهم إلى غيرهم.

ثانياً- موضوعات البحث:

سيناقش البحث موضوعه في ثلاث إشارات، الأولى تُبيِّن ماهية "العدول عن مقتضى الحال"، وتحدد طبيعته، والثانية تُبرز بعض صورته وأحواله، والثالثة تناقش آثاره ومآلاته:

الإشارة الأولى - في الماهية:

أولاً- التحديد:

إن "العدول عن مقتضى الحال" يربط دلالة بنية اللغة بأحوال السياق خارجها، ومواقفه المختلفة، ثم ينظر في مطابقتها لمواقفه، وأحواله، أو عدولها عنه؛ ومن ثمَّ فإن الحركة الناقلة بين مسارات بنية اللغة الداخلية، وأحوال الحال أو المقام خارجها- هي التي تشكل هذا العدول، وتحدد طبيعته، وما يميزه عن العدولات التي يشكلها مسار خطي ممتد ومتتابع.

(١) ينظر ، السيوطي ، جلال الدين السيوطي: معترك الأقران، تح: محمد عبد الرحمن، ج١، دار الفكر، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ص: ٢٤٥. وابن الأثير، ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص: ١٧٠.

ولتوضيح طبيعة هذا العدول أكثر، يجب أن ننظر في معاني صيغة: "كْرِيْمٌ أَنْتَ..!!"، إذ نجدها حالاً من حالين، الأول: مطابقة دلالة الصيغة اللغوية لمواقف الحياة خارج بنيتها، فالمخاطب كريمة حقيقةً، وحينها يكون مهامها هو الإخبار عن الموقف فقط، والآخر: عدم مطابقة معاني البنية اللغوية وما تفيد مواقف الحياة خارجها، إذ إن المخاطب لا يتسم بالكرم حقيقةً؛ ومن ثمَّ حصل عدل عن نفي كرم المخاطب بالأسلوب المألوف والمباشر إلى خلافه، وهذه الصورة من العدول عن المطابقة بين معاني بنية اللغة، ومواقف الحياة، وأحوالها خارجها- هي موضوع هذا البحث المعنون بـ"عدول المعاني عن مقتضى الحال في القرآن الكريم".

ومن الشواهد القرآنية لهذا العدول ما ورد في قوله (تعالى): ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١)، إذ تفيد بنية اللغة في الآية- إيجاب مقام المخاطب، وهذا خلاف واقع الحياة، وأحوالها خارج هذه البنية اللغوية؛ ومن ثمَّ حققت البنية اللغوية بهذا العدول دلالات جديدة سالبة، كالتهمك، والسخرية.. ونحوهما.

ثانياً- مقاربات موضحة:

يتميز "العدول عن مقتضى الحال" عن الصيغ الطلبية التي خرجت معانيها عن مقتضى ظاهرها- بأمر، منها إن صيغة الأمر -مثلاً- لا تخفي دلالتها الأصلية المألوفة، بل تبقى معاني الطلب في صيغة الأمر، ثم يضاف إليها محمول دلالي جديد؛ ومن ثمَّ لا نجد تكويناً جديداً لمعاني صيغة الأمر، بل نجد إضافات دلالية جديدة إلى معاني هذه الصيغة الأصلية، فرضها سياق الحال أو الموقف، أما في "العدول عن سياق الحال" فنجد تكويناً دلالياً جديداً، فرضه تناقض معاني حالين، الأول خطي لغوي، والآخر حالي واقعي.

وكذلك "العدول عن مقتضى الحال" ظاهر الإدراك، ولا يحتاج إلى جهد كبير لإدراك مقاصده؛ بسبب التناقض الظاهر بين معاني البنية اللغوية، وسياق الحال خارجها، وخلافه خروج الأمر عن مقتضى دلالاته الظاهرة. وحتى تبرز طبيعة الموضوع المستهدف دراسته في هذا البحث أكثر، وتتحدد معالمه، سيعمل البحث مقارنة أسلوبية بين "العدول عن مقتضى

(١) الدخان: ٤٩

الحال"، وأسلوب "الكنائية"، الموصول بها في بعض أحواله، والمتميز عنها في أحوال أخرى؛ والغاية هو التأكيد على نقاط الوصل بين الأسلوبين، ثم تحديد تميز أسلوب "العدول عن مقتضى الحال"، وما يترتب على تميزه من أثر بياني مفيد؛ إذ سأخصص هذه المقاربة في آيتين، الأولى لمناقشة "العدول عن مقتضى الحال"، وهي قوله (تعالى): "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ"، والأخرى لمناقشة الأسلوب الكنائي، وهي قوله (تعالى): "مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ..".

إن بالنظر في الآيتين السابقتين يتأكد أن للأسلوبين بنيتين، الأولى: البنية المظهرة، وهي النظام اللغوي الحسي، وعلاقات عناصره الظاهرة، والمدركة بالحواس، ومعانيه التي أول ما يخلص إليها الذهن، في حال مباشرة تلقيه معاني هذا النظام اللغوي الظاهر، والبنية الأخرى: البنية المتوارية، ومعانيها بعيدة ومتوارية، وهي المستهدف تحقيقها في الأسلوبين، وهذه المعاني المتوارية والعميقة موصولة بالمعاني المظهرة والقريبة، وإن كانت موصولة بها، ومآلها البعيد، في الأسلوب الكنائي، وكذلك تتجاوز البنية الأولى ومعانيها القريبة، في أسلوب "العدول عن مقتضى الحال"، ولكنها ثمرة عدم التطابق بين معطى البنية اللغوية وأحوال الحياة خارجها.

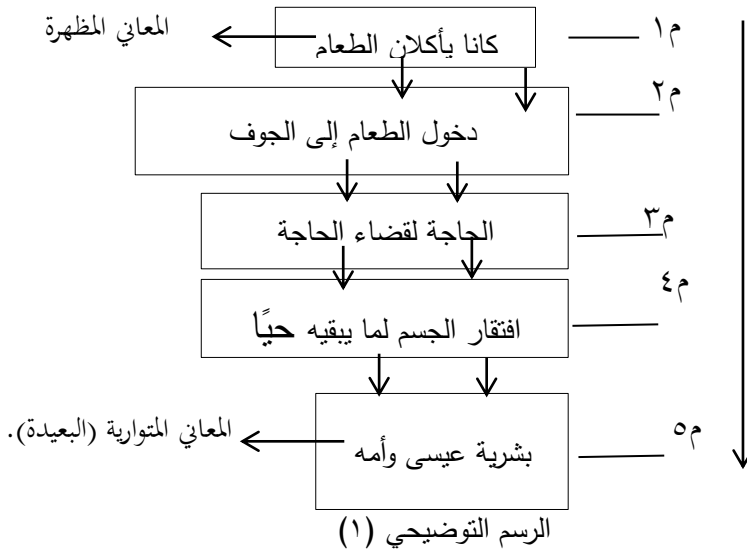
وإن مسار المعنى في الأسلوبين يتجه من المظهر القريب إلى المتواري البعيد، أي: من معاني البنية اللغوية التي يباشر الذهن أخذها عند تلقيه الأول والمباشر للنظام اللغوي المدرك بالحواس، إلى المعاني المتوارية، التي يخلص إليها العقل، والإدراك الواعي لمعطى البنية الحسية ومعانيها المظهرة، وفهمه لها.

إن المعاني المظهرة، والقريبة الأخذ، في: "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ"، تفيد إيجاب حال المخاطب وعزته، ولكن المعاني المتوارية التي خلص إليها العقل، ووعيه لها، هي: التوبيخ، والتقريع، والتهكم، والاستهزاء.. ونحو هذه المعاني.

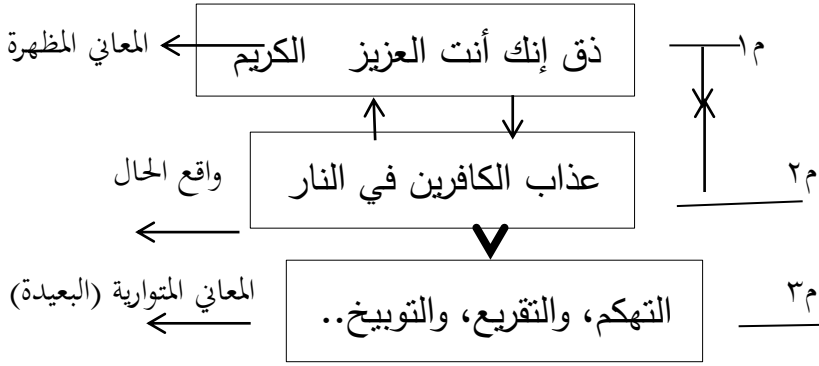
وإن المعاني المظهرة، والقريبة الأخذ، في: "كَاْنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ"، تفيد ممارسة عيسى (عليه السلام) وأمه لفعل إنساني، وهو أكل الطعام، ولكن المعاني المتوارية والعميقة التي يخلص إليها النظر العقلي، وإدراكه الواعي لها- هي تأكيد بشرية عيسى (عليه السلام) وأمه، ونفي عنهما صفات الألوهية.

إن المعاني المظهرة لهذين الأسلوبين والقريبة تتوارى خلفها المعاني البعيدة والعميقة؛ ومن ثم لا يقف القارئ عند السقف الدلالي المظهر والقريب بل تحيله المعاني المظهرة إلى المعاني المتوارية والبعيدة، وهي المستهدف بيانها في أداء الأسلوبين؛ ومن ثم فإن هذه الإحالات المعنوية المفاجئة، والحركة الناقلة من معنى إلى آخر، أو من المعاني القريبة والمباشرة إلى المعاني المتوارية والبعيدة- لها أثرها الجميل على متلقي هذين الأسلوبين، المثيرة لاهتماماته، والمحفزة له للنظر بعمق أكثر في معطى الآية، واستكشاف مقاصدها البيانية..

ونلاحظ في الكناية توالد المعاني المتعاقبة من بعضها، وأن المعنى اللاحق موصل بسابقه، ولا ينقطع عنه، بل هو مآله البعيد؛ ومن ثم فإن توالد المعاني، ومسارها الممتد من المظهر إلى المتوارى البعيد، هو ثمرة أخذ المعاني بعضها بأعناق بعض، ولنتدبر توالد المعاني بالبيان التوضيحي للكناية الآتي:



بينما الحصول على المعاني المتوارية والبعيدة، في "العدول عن مقتضى الحال"، هي ثمرة المغايرة بين معاني البنية اللغوية المظهرة والقريبة، وواقع الحال خارج هذه البنية اللغوية، كما يبرز في التوضيح البياني الآتي:



الرسم التوضيحي (٢)

إن عدم التطابق والاتصال بين ما يخلص إليه ذهن القارئ من المعاني المباشرة والقريبة، في البنية اللغوية، في: "ذوق إنك أنت العزيز الكريم"، وواقع الحال خارج هذه البنية اللغوية- هو المنتج للمعاني المتوارية والبعيدة؛ إذ يستلزم هذا التناقض وعدم التطابق ثلاثة أمور:

الأول: خروج معاني البنية اللغوية المظهرة والقريبة عن ظاهرها إلى مقاصد معنوية أخرى متوارية وبعيدة، وهي المستهدفة في بيان الأسلوب..
والثاني: يفترض أن إنتاج هذه المعاني المتوارية والبعيدة وتكثيرها يزداد بزيادة هذا التناقض، وعدم التطابق بين المعاني المظهرة والقريبة للبنية اللغوية وأحوال الحياة ومعانيها خارجها..

والثالث: التأثير اللافت والمؤثر على متلقي أداء هذا الأسلوب اللغوي المميز، وتحقيقه درجة عالية من التوتر للقارئ، وهذا يحفز به إلى النظر في معطى أدائه اللغوي المميز، وتتبع أحواله، وفهم معانيه.

الإشارة الثانية- في أحواله وصوره:

إن "العدول عن مقتضى الحال" صوراً عدة في القرآن الكريم، نبين ثلاثاً منها:

الصورة الأولى: العدول عن أحوال الحياة الواقعية:

نجد في هذه الصورة- عدول معاني بنية اللغة عن مطابقتها لمعاني الحياة الواقعية وأحوالها؛ ومن ثم ناقضت معاني البنية اللغوية أحوال الحياة الواقعية خارجها، وابتعدت عنها، وشواهد هذه الحالة في القرآن الكريم قليلة، أبرزها ما ورد في قوله (تعالى): ﴿ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١)، وفي قوله

(١) الدخان: ٤٩

(تعالى): ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾^(١)، إذ تفيد البنية اللغوية -في الآية الأولى- إيجاب كرم المخاطب وعزّه، وهذا خلاف أحوال واقعه السالبة.

وكذلك يفيد ظاهر بنية اللغة -في الآية الثانية- دلالات موجبة لخلق المخاطب، ولكنها خلاف موقف قوم شعيب من نبيهم (عليه السلام)، واستخفافهم به؛ ومن ثمّ حصل عدول معاني بنية اللغة عن مطابقتها أحوال الواقع خارجها؛ ومن ثم حققت بهذا العدول أكثر من دلالة سالبة.

ويكون موضع العدول صيغة تركيبية -كالآيتين السابقتين- وقد يكون في الصيغة المفردة، نحو: ﴿بَشَرَ﴾ التي وردت في مواضع عدة، في القرآن الكريم، وهي: قوله (تعالى): ﴿بَشَرَ الْمَنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَبَشَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣)، وقوله: ﴿فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤)، وقوله: ﴿فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥)؛ إذ لا تتصل معاني مفردة ﴿بَشَرَ﴾ في سياقها اللغوي بالمواقف المُعَبَّر عنها خارج بنيتها اللغوية؛ ومن ثم تجاوزت المفردة ظاهر معناها المألوف والمعروف، إلى معاني ودلالات أخرى، أكثر عمقاً، وأوسع تنوعاً، ولم تبق "بشر" مقيدة بمعانيها المفرحة، بل اتسعت لخلافها.

الصورة الثانية - العدول عن أحوال الزمن الواقعية:

إن هذا العدول هو: عدول معاني صيغ الزمن في البنية اللغوية عن مطابقتها أحوال الزمن في واقع الحياة؛ إذ وردت معاني الزمن في المبنى مخالفة زمن واقعها المتحققة فيه، فمثلاً نجد الزمن الماضي يُعَبَّر به عن وقائع وأحداث في المستقبل، لم تَتَحَقَّقْ بَعْدُ، ونجد الزمن الحاضر يُعَبَّر به عن وقائع وأحداثٍ ماضية.. ونحو هذا.

(١) هود: ٨٧.

(٢) النساء: ١٣٨.

(٣) التوبة: ٣.

(٤) لقمان: ٧، والجمانية: ٨.

(٥) آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤.

وشواهد هذه الصورة من العدول كثيرة في القرآن الكريم، كالتعبير عن أحداث المستقبل بالزمن الماضي "أتى"، في قوله (تعالى): ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١)، ويقتضي التعبير عن حصول حدث غير حاصل، ولم يتحقق بعد، يكون بزمن المستقبل ﴿سَيَأْتِي﴾، لكن ما ورد في الآية هو خلافه، والتعبير عن المستقبل بزمن الماضي، في قوله (تعالى): ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنُ﴾^(٢)، ويقتضي حصول الحدث في المستقبل الأخذ بمعاني صيغة ﴿سَيَكْبَبُونَ﴾؛ ومن ثم حصل عدول الزمن في البنية اللغوية عن زمن واقعه المتحقق فيه، وكذلك التعبير عن الماضي بزمن الحاضر "ترميمهم"، في قوله (تعالى): ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾^(٣)، وحصول الحدث في الماضي يستلزم الأخذ بمعاني صيغة ﴿رَمَتْهُمْ﴾، ولكن حصل عدول الزمن في البنية اللغوية عن زمن واقعه المتحقق فيه.

الصورة الثالثة- العدول عن النظام اللغوي المؤلف:

إن لكل لغة نظاماً يأخذ به أهلها، ويلتزمون بقواعده، كون "اللغة ظاهرة اجتماعية، وهي من صنع الإنسان وابتكاره؛ ومن ثم فهي لصيقة به وقريبة إليه، وجزء من معناه."^(٤)، ولكن نلاحظ -وفي مواضع محدودة في القرآن الكريم- العدول عن الأخذ بما هو ثابت ومعلوم في الاستخدام اللغوي في واقع الناس، إلى الأخذ بنظام لغوي آخر جديد..

وإن من شواهد هذا العدول ما ثبت في النظام اللغوي العربي أن المستثنى في الحكم يخالف المستثنى منه، ولكن عدل القرآن الكريم عن هذا الاستخدام اللغوي في قوله (تعالى): ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا، إِلَّا قِيْلًا

(١) النحل: ١

(٢) الشعراء: ٩٤

(٣) الفيل: ٤.

(٤) ينظر ، بشر ، د. كمال بشر: دراسات في علم المعنى (السيمانتيك)، جامعة القاهرة، كلية دار

العلوم، ١٩٨٥م، ص : ٥٨

سَلَاماً سَلَاماً^(١)، فيفترض في المعاني المستثناة عن سماع ما هو خال من اللغو والتكذيب أن تكون مخالفة ما بعد الاستثناء في الحكم؛ وَمِنْ تَمَّ فَإِنَّ المعاني المحتمل حصولها بعد الاستثناء سالبة، ولكن حصل خلاف ما هو متوقع؛ إذ ما بعد إلا يتصل بالحكم مع ما قبلها.

الإشارة الثالث - في آثاره البنيانية:

يفيد "العدول عن مقتضى الحال" في إنتاج المعاني، ويحقق خيبة انتظار القارئ، وإثارة تشوفه لمعطى خطاب الآية، وتحفيزه لما فيه، وتفاعله مع أدائه المميز، وهذا ما أناقشه في الآتي:

أولاً- إنتاج المعاني:

إن عدول معاني البنية اللغوية عن مطابقتها لمعاني الحياة وأحوالها الواقعية يفيد في إنتاج معاني جديدة لهذه البنية اللغوية مضافة إلى أصولها المعنوية؛ إذ إن ثمرة تفاعل داليتين متباينتين دلالة ثالثة، مُمَيَّزَةٌ عن الداليتين السابقتين، وَمُفَيِّدَةٌ في بيان معاني الآية، وتوكيدها، ويفترض كذلك- أن تزداد معاني البنية اللغوية، وتتسع مع زيادة التباين بين معاني البنية اللغوية، ومواقف الحياة وأحوالها خارجها.

ولنناقش هذه الفرضيات ونختبر صحتها، بتعميق النظر في أحوال صيغة "كَرِيمٌ أَنْتَ...!!!"؛ إذ يفيد ظاهر البنية اللغوية كرم المخاطب، وهذه الإفادة بين حالين، الأول: إمّا مطابقة معاني البنية اللغوية لمواقف الحياة خارجها -وهذا هو الأصل- أو عدولها عن المطابقة، وفي حالة التطابق تفيد الصيغة بمعنى واحد، وهو إخبارها عن معاني إيجابية عن كرم المخاطب، أما في حالة المغايرة بين معاني الصيغة اللغوية، ومقتضى حال المخاطب؛ فإن ثمرة هذا التباين معاني جديدة، وعلّة تعدد المعاني وتوالدها هو التفاعل بين معاني البنية اللغوية، ومعاني الحياة، وأحوالها الواقعية خارجها؛ وَمِنْ تَمَّ تتعدد المعاني لهذه الصيغة، فتفيد -مثلاً- التوجيه، وتفيد التحفيز في موقف، ثم تفيد في موقف آخر التعريض، وقد تفيد في موقف ثالث التوبيخ، أو تفيد الاستهزاء، أو التهديد..

(١) الواقعة: ٢٥ . ٢٦.

ونحو هذه المعاني، ويزداد توالد معاني البنية اللغوية ويتسع بزيادة التباين بين معاني البنية اللغوية، ومواقف الحياة وأحوالها الواقعية خارجها..

ولنوضح أكثر بتحليل معطى قوله (تعالى): ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١)؛ إذ نلاحظ في الآية ثلاثة مستويات دلالية:

المستوى الدلالي الأول: الدلالة الظاهرة أو المباشرة للبنية اللغوية في الآية، وهي تفيد كرم المخاطب وعزه.

المستوى الدلالي الثاني: هو أحوال المخاطب الواقعية خارج البنية اللغوية، ونذكر أحوال المخاطب الواقعية، والحاصلة خارج البنية اللغوية من توصيف الآيات السابقة لهذه الآية ولواقعها، وهي تفيد جحود المعنيين بالخطاب وانحراف تصورهم، وكفرهم بالله (تعالى)، وكذلك تشير هذه الآيات إلى شقائهم في أخراهم، وعذاب الله لهم لسوء أفعالهم، في قوله (تعالى): ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢).

المستوى الدلالي الثالث: هو ثمرة تفاعل معاني البنية اللغوية مع أحوال المخاطب الواقعية خارج هذه البنية اللغوية، ومعاني هذا المستوى الدلالي ودلالاته تتجاوز سابقها، وتنسم بالسلب، والاتساع، والتنوع^(٣)؛ إذ تفيد التهكم،

(١) الدخان : ٤٩.

(٢) الدخان : ٤٩، ٤٠.

(٣) وردت المادة اللغوية "ذوق" في خمسة وستين موضعاً، في القرآن الكريم، وإن للمفردة "ذاق" دلالة مطعومات، وبها يحصل الوعي الحسي لممارسة فعل التذوق، وآلته اللسان، ويضاف فعل "ذاق" في القرآن الكريم، للإيجاب والسلب، وللمنح وللمحن، مع ملحظ أنها في معاني الإيجاب وردت في ستة مواضع مقرونة في الآيات كلها، بـ"الرحمة"، وهي قوله (تعالى): ﴿ثُمَّ إِذَا أذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم : ٣٣] ، وقوله: ﴿وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِنْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [يونس : ٢١] ، وقوله: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ لَكُفُورٌ﴾ [هود : ٩] ، وقوله: ﴿وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا..﴾ [الروم: ٣٦] ، وقوله:

وتفيد السخرية^(١)، والإهانة، والتقريع.. ونحوها، يقول العلوي اليماني: إن المقصود هو الاستخفاف والإهانة، وأخرجه هذا المخرج للتهكم^(٢). وربط البعض بين زمن التخاطب حال مخاطبتهم، وأحوالهم السالفة لهذا الخطاب، والحاصلة في الدنيا، على وجه الحكاية؛ لأنه كان في الدنيا يُقال له: إنك أنت العزيز الكريم، فَعُدِّبَ بهذا، وقِيلَ له: دُقْ فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم..^(٣).

وما ورد ذكره في تحليل الآية السابقة، حاصل في قوله (تعالى): ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٤)؛ إذ نلاحظ عدول معاني البنية اللغوية عن مقاصد المتكلمين، وأحوالهم النفسية والمعنوية؛ ومن ثمَّ تجاوزت معاني هذه الصيغة اللغوية دلالتها الأصلية، إلى دلالات جديدة كالسخرية، والتهكم.. ونحوهما. وتفيد مفردة ﴿بَشَّرَ﴾ معاني إيجابية؛ إذ إن البشارة هي: "إخبار بما يظهر سرور المخبر به"^(٥)، وفي حال عدم مطابقة معاني هذه المفردة مواقف

﴿وإذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها..﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقهم من رحمته..﴾ [الروم ٤٦]، فالرحمة هنا أصبحت مطعوماً، ومحسوساً، بإضافتها للمفردة "ذاق"، واستدعي بها لذة المطعوم، والراحة النفسية من **تذوقه**.. وكذلك وردت قرينة العذاب، وسوء العاقبة، ونحو هذا من الدلالات السلبية في نحو تسعة وخمسين موضعاً، كقوله (تعالى): ﴿فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرًا﴾ [الطلاق: ٩]، وقوله: ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله: ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ [الحشر: ١٥].. ونحو هذا التغابن: ٥، والنحل: ٩٤، والمائدة: ٩٥، والنساء: ٥٦، وص: ٨.. وغيرها.

(١) ينظر، القرطبي، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت: ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، دار الكتب العلمية، ص: ١٥١.

(٢) ينظر، العلوي اليماني، يحيى بن حمزة: كتاب الطراز، ج ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت. ط)، ص: ١٦٢.

(٣) ينظر، الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، ج ٢٥، المعرفة، ١٩٩٠، ص: ٨٠، وينظر، أبو الطيب، العظيم آبادي: أنوار التنزيل، ج ٥، دار الفكر، ص: ١٦٤، وينظر، الألويسي البغدادي، شهاب الدين السيد محمود (ت: ٢٧٠هـ): روح المعاني، دار إحياء التراث، ج ٢٥، ص: ١٣٨.

(٤) هود: ٧٨

(٥) العلوي اليماني: كتاب الطراز، ج ٣، ص: ١٦٢.

الحياة الواقعية وأحوالها خارج بنيتها اللغوية فإنها تتجاوز معانيها الأصلية، وتتسع لمعان أخرى قد تختلف عن معانيها الظاهرة، وهذا حاصل في قوله (تعالى): «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، يقول العلوي اليماني، في هذه الآية: "لفظ الإشارة دال على الوعد، وعلى حصول كل محبوب، فإذا وُصِلَ بالمكروه كان دالاً على التهكم لإخراجه المحبوب في صورة المكروه"^(١)؛ ومن ثم فإن مقاصد الآية من التبشير هو الاستهزاء والتهكم، والتقريع، والتوبيخ.. ونحو هذه المعاني^(٢).

ولننظر في أحوال البيان الحاصل في الصورة الثانية من صور هذا العدول، في قوله (تعالى): "فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ"^(٣)، وفي قوله: "تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ"^(٤)؛ إذ نجد أن الزمن في صيغتي: «كُبْكِبُوا»، و«تَرْمِيهِمْ» لا يطابق زمن حصوله في واقع الحياة؛ إذ تفيد صيغة «كُبْكِبُوا» حصول فعل الكبكة في الزمن الماضي، وهو غير متحقق الحصول في الحياة الواقعية حتى الآن، ويمكن تحقق حصوله في المستقبل، وكذلك تفيد صيغة «تَرْمِيهِمْ» حصول الفعل في الحاضر، ولكن زمن الفعل خارج البنية اللغوية حصل في الماضي؛ ومن ثمَّ حَقَّقت هذه الصورة من العدول أكثر من دلالة، نبرزها في الآتي:

أولاً- تبرز في قوله (تعالى): «تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ»^(٥) ثلاثة أحوال دلالية، الأول: دلالة البنية اللغوية، وتفيد الزمن الحاضر، والثاني: دلالة الموقف خارج البنية اللغوية، ويفيد حصول الفعل في الزمن الماضي، والثالث: الدلالة التفاعلية: وهي ثمرة تفاعل الدالتين السابقتين، وتفيد استمرار الفعل، وتجدد حدوثه، وتُحَقِّق استحضار مشهد الرمي، وتَمَثَّل حضور أحداثه.

(١) العلوي اليماني: كتاب الطراز، ج٣، ص: ١٦٢، وينظر، أبو الطيب، العظيم آبادي: أنوار التنزيل، ج٥، ص: ٤٧٠، ج١، ص: ٢٤١، و ينظر، السيوطي، جلال الدين (ت: ٩١١هـ): تفسير الجلالين، دار إحياء التراث، ص: ٧٠

(٢) ينظر، أبو الطيب، العظيم آبادي: أنوار التنزيل، ج٥، ص: ٤٧٠، و ج١، ص: ٢٤١، وينظر، السيوطي، جلال الدين (ت: ٩١١هـ): تفسير الجلالين، ص: ٧٠

(٣) الشعراء: ٩٤

(٤) الفيل: ٤.

(٥) الفيل: ٤.

وكذلك تشير معاني هذه الصيغة إلى حقائق غائبة عن العالم الحاضر والمشاهد، وهو أن استمرار فعل الرمي، وتجدد حدوثه لأصحاب الفيل، غير منقطع الحدوث، بل متجدد لتعذيبهم في العالم الآخر، إلى ما شاء الله، كذلك نجد استمرار آثار الفعل؛ إذ إن تجدد فعل الرمي واستمراره، ليس بالضرورة لعين الفعل، ولكن قد يكون لآثاره المترتبة عليه؛ ومن ثم فإنه وإن غاب عين فعل الرمي عن الممارسة في الواقع الحسي، لكن بقيت آثاره.

ثانياً- تبرز في قوله (تعالى): ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنُ﴾^(١) ثلاثة أحوال دلالية كذلك، الأول: دلالة البنية اللغوية، وتفيد حصول الفعل في الزمن الماضي، والثاني: دلالة الموقف خارج البنية اللغوية، وتفيد حصول الفعل في زمن المستقبل، والثالث: الدلالة التفاعلية، وهي ثمرة تفاعل الدالتين السابقتين، وهي تحقق المعاني الآتية:

أولاً- تأكيد تَحَقُّق الفعل: إذ تؤكد صيغة الزمن الماضي على تَحَقُّق حصول الفعل، وحدثه في المستقبل، وكأنه قد حصل.

ثانياً- تتصل صيغة الماضي بتقدير الله (تعالى)، وتدبيره المسبق لأحداث المستقبل قبل حصولها في حياة الخلق، وبعلم الله (تعالى) التام لما كان في الماضي، ولما هو كائن في الحاضر، ولما سيكون في المستقبل.

ثالثاً- الاستيعاب لأبعاد الزمن: إذ إن معطيات البنية اللغوية، وأحوال الزمن الواقعية، ثم ما ترتب عليها من معاني ودلالات قد استوفت أحوال الزمن الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ ومن ثمَّ فإن هذا الاتساع الزمني هو أوفى للبيان من معاني زمن واحد.

رابعاً- تصوير المعاني: إن هذا المعلم البياني محدد بالوزن الصرفي لصيغة "ككبوا"، ولا علاقة له بالعدول، وحاصل هذا في تكرار أصوات حروف "ككبوا" وتوازيها، وكأنَّ في تكرارها محاكاة لتكرار الفعل؛ ومن ثمَّ يكون في الكببة تكرير الكبِّ، وكأنه إذا ألقى الكافر في جهنم يُكَبُّ مرةً بعد مرة، حتى يستقر في قعرها^(٢)، وكذلك في تعادل الحروف المكرورة وتوازيها

(١) الشعراء: ٩٤

(٢) ينظر، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨ هـ): الكشاف، تج: محمد عبد السلام شاهين، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص: ٣١٢.

أو تساويها تجسيد لتعادل فعل الكب المكرور، وتساوي حصوله حالاً وكمّاً، أي حال فعل "الكَب" ، وكمية حصوله في كل مرة.

خامساً- دلالة جمالية: إن هذا المعلم الجمال -كسابقه- محدد بحال صيغة "ككبوا"، ونظامها اللغوي المكون لها، ولا علاقة له بالعدول؛ ومن ثم فإن ذكره لغرض استكمال الفائدة لهذه الصيغة، وإن محصول الجمال في توازي صوتي "الكاف" و"الباء" وتساويهما؛ لهذا استحسنت العرب هذه الصيغة؛ لأن فيها ما يدل على ما يحسن من التأليف، ويعين على مشكلة الأعلى بالأعلى، والأوسط بالأوسط، والأدون بالأدون^(١).

ثانياً- التأكيد:

إن تأكيد المعاني هو ثمرة توالد المعاني وتنوعها؛ إذ إن معاني البنية اللغوية تأخذنا إلى معاني الحياة خارج هذه البنية اللغوية، ثم تأخذنا هذه الأحوال الدلالية إلى معاني ودلالات أخرى، وهي المستهدف بيانها في أداء هذا الأسلوب.

إن المسار الناقل بين الأحوال الدلالية المختلفة ينتج أكثر من دلالة، وبزيادتها يزداد قوة بيانها، وكذلك يزداد قوة تأثير الأداء اللغوي مع زيادة التباين بين معنى البنية اللغوية، ومعطى الحياة الواقعية وأحوالها خارج هذه البنية اللغوية.

إن البناء اللغوي كالبناء المادي الملموس، فهو يزداد قوة وتماسكاً بزيادة لبنه؛ ومن ثم فإن تكثير المعاني وتعانقها ببعضها، تعميقاً لهذه المعاني وتأكيداً لها أكثر.. وأكبر، وإن كل دلالة جديدة تضاف إلى سابقاتها تقويها وتعمقها أكثر. ففي آية: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ، إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾^(٢)، نجد لأسلوب الاستثناء مستويين دلاليين، يعمق كل منهما الآخر ويؤكدده، المستوى الأول دلالة إيجاب الحياة في الجنة، ونفي لغوها وآثامها، ويأتي المستوى الدلالي الثاني لهذا الاستثناء لا ليستثنى شيئاً عن إيجاب المستوى الأول، ويشكل هدماً دلالياً له، بل يضيف إليه إيجاباً آخر، وبصورة أكثر تحفيزاً

(١) ينظر، الكاتب، علي بن خلف: مواد البيان، تح: د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة

الفتاح، ليبيا، ١٩٨٢م، ص ٢٣٠.

(٢) الواقعة : ٢٥. ٢٦.

للمخاطب، وإثارة لانتباهه، بسبب خيبة انتظاره، ومخالفة توقعه، الحاصل بسبب الحكم الوارد بعد الاستثناء المخالف للنظام العربي المألوف والمعروف؛ ومن ثم أفاد تعانق مستويان دلاليان واتساقهما في تعميق المعاني المستهدف بيانها، وتأكيدهما أكثر.. وأكبر.

ثالثاً. التخميع:

التخميع هو العَرَج في المشي..^(١)، والعرج خلاف الاستواء في الحركة والسير، والتخميع في الأداء الأسلوبي هو التَّعْرُج في مسارات اللغة ومعانيها، وهذا خلاف الاستواء الدلالي الذي يأخذ بأداء لغوي واحد، ويسير بوتيرة ثابتة؛ ومن ثم فإن التخميع في الأداء يسبب خلخلة في البنية اللغوية ذات المسار المتجانس، وفي استنتاجات معانيها، وحصول خيبة انتظار القارئ، بسبب المعاني الجديدة وغير المتوقع حصولها عنده، وهذا يجعله يعيد قراءة الأداء اللغوي من جديد، ويعيد فهمه لمراده، وكذلك يحفز النفس للنظر في مسارات اللغة بعمق أكثر، واستكشافها للمعاني المتوارية، ولذة حصولها عليها.

إنَّ أَيْ لُغَةً لَهَا ثَلَاثَةٌ جَوَانِبَ رَئِيسَةً تَنْتَظِمُهَا، الْجَانِبَ الْأَوَّلَ الرَّمْزَ نَفْسَهُ، وَهُوَ الْكَلِمَةُ الْمَنْطُوقَةُ الْمَكُونَةُ مِنْ مَجْمُوعَةٍ مَعْيِنَةٍ مِنَ الْأَصْوَاتِ، وَالْجَانِبَ الثَّانِي الْمَحْتَوَى الْعَقْلِيَّ الَّذِي يُسْتَدْعَى فِي ذَهْنِ السَّامِعِ حِينَ سَمَاعِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَالْجَانِبَ الثَّلَاثَ هُوَ الشَّيْءُ نَفْسَهُ فِي الْحَيَاةِ الْوَاقِعِيَّةِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْمَقْصُودُ، أَوْ الشَّيْءُ الْمَعْنَى^(٢)؛ وَمِنْ هَذِهِ الْمَسْتَوِيَّاتِ يَتَحَقَّقُ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ وَفَهْمُهُ، وَيَتَرْتَبُ أَثَرُهُ عَلَى الْمَتَلَقِّيِّ فِي حَالِ مَغَايِرَةِ مَعَانِي الصِّيغَةِ الْمَفْرَدَةِ، أَوْ مَعَانِي الصِّيغَةِ الْمُرَكَّبَةِ وَاقِعِ الْحَيَاةِ وَأَحْوَالِهَا خَارِجِ هَذِهِ الْبِنْيَةِ لِلْغَوِيَّةِ، أَوْ تَجَاوُزِ الْأَخْذِ لِلْغَوِيِّ الْوَضْعِ لِلْغَوِيِّ، وَنِظَامِهِ الْمَأْلُوفِ وَالْمَعْرُوفِ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ.

فمثلاً في قوله (تعالى): ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٣) - مساران دلاليان أساسيان، الأول: الدلالة المظهرة والقريبة، المأخوذة مباشرة من معطى النظام اللغوي، وهي دلالات موجبة، والآخر: معاني الحياة الواقعية وأحوالها خارج هذه البنية اللغوية، والمسار الأول يضع المتلقي في وضع دلالي إيجابي، وبهيئته لتوقع حصول معانٍ موجبة، والمسار الآخر يضع المتلقي في مسار دلالي يخالف الأول، فيحصل بهذا خيبة انتظار للمتلقي، وتخميع مسارات الاستواء الدلالي، في هذه المستويات الدلالية؛ بسبب ما يقدمه المستوى الدلالي الثاني من

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج ٢، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، مادة: (ظلع).

(٢) ينظر، بشر، د. كمال بشر: دراسات في علم المعنى (السيمانتيك)، ص: ٨٨ - ٨٩.

(٣) الدخان: ٤٩

معان مفاجئة، وغير متوقعة^(١)؛ ومن ثم التأثير في المتلقي، وتحفيزه للنظر والبحث عن المعاني وفهما أكثر وأكبر.

و نجد كذلك- نحو ما سبق حاصل في أسلوب الاستثناء، في قوله (تعالى): ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تُنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقِينَ ﴾^(٢)، وفي قوله (تعالى): ﴿ الذِّينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدَمَتِ سَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيْرًا ﴾^(٣)، وفي قوله (تعالى): ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيْمًا ، إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾^(٤)؛ إذ إن ما بعد أداة الاستثناء في الآية الأولى خلاف توقع المتلقي؛ لأن الاستثناء بعد الاستفهام، الخارج مخرج التوبيخ، على ما عابوا به المؤمنين من الايمان، يوهم أن ما يأتي بعده مما يوجب أن ينقم على فاعله^(٥)، فإذ به خلاف المتوقع؛ ومن ثم التأثير في المتلقي، ونحو هذا حصل في الآية الثانية، إذ "إن ظاهر الاستثناء يوهم إن ما بعده حق يقتضي الإخراج، فلما كان صيغة مدح تقتضي الإكرام لا الإخراج"^(٦)، حصل خلاف المعاني المتوقعة الحصول عند المتلقي؛ ومن ثم نجد في الآيات السابقة- أن المتوقع هو الأخذ بالنظام اللغوي العربي المعروف والمألوف، وهو أن ما بعد الاستثناء يخالف في الحكم ما قبله، ولكن حصل خيبة انتظار؛ لحصول معانٍ غير محتملة الحصول، وخلاف ما هو متوقع؛ وبهذا حصل تعطيل للقدرات الذهنية في استنتاجها للمعنى، وحثها لإعادة النظر في هذا الأداء اللغوي الغريب، ووعيتها له من جديد.

(١) ينظر، خضر، ناظم عودة: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، ١٩٩٧م، ص: ١٤٥.

(٢) المائة: ٥٩

(٣) الحج: ٤٠

(٤) الواقعة: ٢٥ . ٢٦.

(٥) ينظر، السيوطي: معترك الأقران، ج ١، ص: ٢٥٢

(٦) السيوطي: معترك الأقران، ج ١، ص: ٢٥٢.

رابعاً التحفيز:

إن من الثابت أن "الألفة قد تنقص من تقديرنا لجمال الأشياء"^(١)؛ ومن ثم فإن تحفيز النفس موصول بخيبة انتظار المتلقي، فحصول معانٍ غير متوقعة الحصول عنده تسبب خيبة انتظاره، وتحدث تخميماً لمساره الدلالي المألوف والمعروف في ذهنه، وهذا يثير ذهنه أكثر، ويحثه للنظر في الجديد والغريب، والاستمتاع بتلقيه.

إن "العدول عن مقتضى الحال" يبتعد عن طرق التعبير المعتادة والشائعة^(٢)، ويخرج عن الأداء اللغوي المألوف والمعروف؛ فهو يخرج "القول مخرجاً غير مخرج العادة، ليضعه في مَصَافِّ القول المُعْرَب والمبندع، وما يترتب على هذا الإجراء الأسلوبي من أثر في النفس، التي تتلقى إغراب هذا الأسلوب كما تتلقى الغرباء بتعجب ودهشة، وهذا لا يحصل في حال تلقي الكلام المعتاد، أو رؤية الناس العاديين"^(٣)؛ ومن ثمَّ فإن حصول معانٍ بعيدة وجديدة، وغير محتمل حصولها، في أداء "العدول عن سياق الحال" تسهم في توجيه المتلقي إلى معطى نظام أسلوبها اللغوي، وتحثه لاستكشافها، وفهمها، وتتبع أحوالها^(٤)؛ ويفيد هذا العدول في تنويع الأداء، وهذا فيه "صيانة للسمع عن الضجر والملل؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التقلات، والسامة حال الاستمرار على منوال واحد"^(٥).

(١) أبو ريان، محمد علي: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص: ٨٣.

(٢) ينظر، عياد، د. شكري محمد عياد: اللغة والإبداع، انترناشونال، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م، ص: ٧٨-٩٠.

(٣) ينظر، عبيدات، شهد أحمد: الغرابة في النقد العربي القديم، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢م، ص ٣٤.

(٤) ينظر، القعود، عبد الرحمن القعود: (في الإبداع والتلقي)، عالم الفكر، مجلد، ع٤، ١٩٩٧، ص ١٧٩.

(٥) السيوطي: معترك الأقران، ج١، ص: ٢٤٤.

الخاتمة:

إن التناقض بين المعاني المظهرة في البنية اللغوية للأسلوب، وأحوال الواقع خارجها، توصلنا بثنائيات الوجود المتقابلة، والمتضادة، في كثير من أحوالها، كثنائية الحياة والموت، والخير والشر، والإيمان والكفر، والذكورة والأنوثة، والليل والنهار.. ونحوها، وتفاعل هذه الثنائيات من ضرورات الحياة، ومن عوامل بقاء الإنسان في الأرض؛ ومن ثم فإن المغايرة بين معاني بنية اللغة وواقع الحياة خارجها، في هذا الأسلوب يتصل بأشياء الحياة، ويجسد حالة من أحوالها، وأن هذه المغايرة تحقق ثلاثة أمور، وهي:

أولاً- خروج البنية اللغوية عن مقتضى ظاهرها إلى معان أخرى..

ثانياً- إن توالد المعاني المتوارية والعميقة وتكثيرها يزداد بزيادة المغايرة بين معاني البنية اللغوية، وأحوال الحياة الواقعية خارجها.

ثالثاً- التأثير الكبير لهذا الأسلوب على المتلقي، وتحقيق درجة عالية من التوتر، الذي يحفز القارئ أكثر وأكبر، للنظر في أداء الأسلوب، وتتبع أحواله، وفهم معانيه..